أسلوب القلب

دراسة بلاغية

مقدمته

د. نادية خميس الحناوي

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالاسكندرية

أسلوب القلب

القلب من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

وهو فى اللغة: تحويل الشيء عن وجهه قلبه يقلبه قلبا وقد انقلب(١).

فى الاصطلاح:

أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه، على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر.

فقولنا: ضرب عمرا زيد، وأكرم محمدا عمرو، ليس هذا من القلب؛ لأنه قدم المفعول على الفاعل وبقى كل منهما على حكمه وصفته، ولم يأخذ كلاهما حكم صاحبه.

والقلب مثل: (عرضت الناقة على الحوض)* أى: أظهرته عليها لتشرب مكان (عرضت الحوض على الناقة)؛ لأن العرض يكون على ماله إدراك، والقاعدة أن المعروض عليه يكون له ميل إلى المعروض، والحوض مما يميل إليه الحيوان فيعرض هو على الحيوان لا الحيوان عليه(٢).

والقلب واضح فى المثال وقد استدل عليه بالتأمل فى المعنى؛ لأن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور واختيار وإدراك حتى يميل إلى المعروض أو يحجم عنه، ولما كان المعتاد فى ذلك أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه، وكانت الناقة هى التى يؤتى بها إلى الحوض والحوض باق

---

(١) انظر لسان العرب – مادة: قلب.

* يرى ابن السكيت أن هذا هو الأصل، والمقلوب: عرضت الحوض على الناقة كأنه لاحظ أن المعروض عليه يكون أمرا مستقرا.

(٢) شرح عقود الجمان للسيوطى ص ٣٠، حاشية اللب المصون ص ٧٧.

فى محله، نزل كل منهما منزلة الآخر وأخذ كل منهما حكم صاحبه، وجعلت الناقة كأنها معروضة والحوض كأنه معروض عليه.

ونجد أن المثال معبر عن نفسية العرب نحو الماء وفرحتهم بوجوده ويسره لهم، فالقائل يعبر عن فرحته بوجود الماء فى الحوض بعد أن كان خالياً منه، فأصبح الحوض فى يده وتحت تصرفه، فكأنه ملكه بيده وذهب به إلى الناقة، وعرضه عليها لتروى ظمأها فهى حياته منها يأكل، ويشرب، ومن وبرها يستظل، وعلى ظهرها يحمل أثقاله[1].

وقد جعل العلماء القلب ثلاثة أنواع*:

١- **قلب التشبيه:** بأن يأخذ كل من المشبه والمشبه به حكم صاحبه فنجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به.

٢- **قلب الإسناد:** أن يشمل الإسناد إلى شئ والمراد غيره نحو قول الله تعالى: (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة)[2].

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ص ١ ص ٤٨٧، بغية الإيضاح جـ ١ ص ١٦٣، من بلاغة النظم العربى د/ عبد العزيز عرفة جـ ١ ص ٢٥٥.

* انظر معترك الأقران للسيوطى جـ ١ ص ١٩٢ ط بيروت. وقد ذكرت أنواع أخرى للقلب لكنها أمور لفظية لا معنى للقلب فيها.
منها: العكس، نحو قوله تعالى (ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ)، المستوى: وهو أن نقرأ الكلمة من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى الأول لا يختلف لفظها ولا معناها نحو قوله تعالى (وربك فكبر)، ومقلوب البعض: وهو أن تكون الكلمة الثانية مركبة من حروف الكلمة الأولى مع بقاء بعض حروف الأولى نحو قوله تعالى (فرقت بين بنى اسرائيل) بنى مركب من حروف بين، انظر البرهان جـ ٣ ص ٢٨٨ - ٢٩٣ ط دار التراث.

(٢) سورة القصص آية ٧٦.

٣- **قلب المعطوف:** بأن تجعل المعطوف عليه معطوفاً والمعطوف معطوفاً عليه نحو قوله تعالى: (فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر. ماذا يرجعون)[١].

حقيقته: فانظر ماذا يرجعون ثم تول.

النوع الأول: قلب التشبيه

الأصل فى التشبيه دخول أداة التشبيه على المشبه به فيشبه الشيء بما هو أبين منه وأوضح، ولكن قد يكون غرض المتكلم المبالغة فتدخل الأداة على المشبه فيقلب التشبيه ويجعل المشبه هو الأصل (مشبهاً به)؛ لادعاء أنه أتم وأقوى فى وجه الشبه من المشبه به حتى صار أصلاً يقاس عليه، والقصد من هذا القلب المبالغة فى التشبيه.

وقد ورد القلب فى التشبيه بكثرة فى كلام العرب وفى فصيح الشعر، كما جاء فى كتاب الله عز وجل. ومن ذلك قول رؤبة:

ومهمة مغبرة أرجاؤه ☆☆☆ كأن لون أرضه سماؤه[٢]

أى رب مفازة مملوءة نواحيها بالغبار كأن لون أرضها لون سمائها.

والشاهد المصراع الأخير من البيت فإنه من باب القلب والمعنى كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه.

والقلب فى البيت تضمن اعتباراً لطيفاً، هو المبالغة فى وصف لون

---

(١) سورة النمل آية ٢٨.

(٢) المهمة: المفازة وهى الأرض التى لا نبت فيها ولا ماء وسميت مفازة تفاؤلاً بأن السالك فيها يفوز بمقصوده أو بالنجاة من المهالك الأرجاء النواحى جمع رجا بالقصر. المغبرة: المملوءة غباراً.

السماء بالغبرة حتى صار بحيث يشبه به لون الأرض فى ذلك مع أن الأرض أصل فيه.

ومنه قول الشاعر:

وبدا الصباح كأن غرته ☆☆☆ وجه الخليفة حين يمتدح[1]

فقد شبه الشاعر غرة الصباح بوجه الخليفة فى النور والضياء إيهاما منه أن وجه الخليفة أتم فى الوضوح والإشراق، وبذلك خرج التشبيه عن المألوف لقصد المبالغة.

وفى ذلك يقول الإمام عبد القاهر معلقاً ومشيداً بهذا اللون من التشبيه:

وهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل فى النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة أصلاً واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم: لا يدرى أو جهه أنور أم الصبح؟ وغرته أضوأ أم البدر؟ وقولهم إذا أفرطوا «نور الصباح يخفى فى ضوء وجهه»، أو «نور الشمس مسروق من جبينه» وما جرى فى هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة فإن فى الطريقة الأولى خلابة وشيئاً من السحر»[2].

أيضاً منه قول الشاعر:

أحن لهم ودونهم فلاة ☆☆☆ كأن فسيحها صدر الحليم

الأصل أن يشبه صدر الحليم بالفلاة الفسيحة فى الاتساع لكن الشاعر رغبة

---

(١) البيت لحمد بن وهيب يمدح الخليفة المأمون.
الغرة : بياض فى جبهة الفرس استعيرت لبياض الصبح وإشراقه.

(٢) أسرار البلاغة تحقيق هـ. ريتر ص ٢٠٥.

منه فى المبالغة بادعاء أن صدر الحليم أفسح من الصحراء قلب التشبيه، فشبه الفلاة بصدر الحليم مبالغة وادعاء أنه أتم وأقوى فى وجه الشبه.

وقول البحترى:

فى طلعة البدر شئ من محاسنها ☆☆☆ وللقضيب نصيب من تثنيها

الأصل أن يشبه الوجه الحسن بالبدر، والقوام الأهيف بالغصن فى الاستقامة، لكن الشاعر أراد أن يبدع فى التشبيه فقلبه، ولم يكتف بهذا بل نراه يوهمنا أن البدر وهو المثل فى الحسن والبهاء فيه شيء لا كل شيء من محاسن هذه الحسناء، أيضاً يوهمنا أن الغصن المياد وهو الأصل الذى يقاس به كل قد أهيف وقوام بديع فيه نصيب من تثنيها.

فحسن عكس التشبيه فى المعنى المتعارف وهو تشبيه جار على خلاف العادة وارد على سبيل الندرة.

وفى هذا يقول الإمام عبد القاهر:

«قد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم فى الشئ هو قاصر عن نظيره فى الصفة أنه زائد عليه فى استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها فيصح على موجب دعواه وسرفه – أن يجعل الفرع أصلا»[1].

وهذا الضرب من التشبيه حسن الموقع لطيف المأخذ، وهو مظهر من مظاهر الافتنان والإبداع فى التعبير.

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠٥.

وقد ورد فى مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل مما يدل دلالة واضحة على أن له آثراً قوياً فى أداء المعنى ومن ذلك قول الله تعالى حكاية عن مستحلى الربا:

(قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا)[١].

فى ذلك يقول الزمخشرى:

إن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع، لأن الكلام فى الربا لا فى البيع...، قلت: جئ به على طريق المبالغة وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً فى الحل حتى شبهوا به البيع[٢].

فالأصل أن يقال: إنما الربا مثل البيع، لأن الكلام فى الربا لا فى البيع والحديث يدور عن الربا، والمرابون يريدون أن يثبتوا شرعيته بتشبيهه بالبيع ليصلوا إلى غرضهم وهو تحليل ما حرمه الله، وإباحة الربا كالبيع فعمدوا إلى قلب التشبيه، وجعلوا الربا المحرم كأنه الأصل المباح وأنه الخليق بالحل، وشبهوا به البيع فى الحل، وهو زيادة فى عدوانهم وطغيانهم واستحلالهم لما حرمه الله بجعل الربا فى الحل أقوى حالاً وأعرف من البيع.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥.

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٢٩٩.

ومنه قوله تعالى: * (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)[٢] وهذا من قلب التشبيه وعكسه، إذ مقتضى الظاهر العكس؛ لأن الخطاب لعبده الأوثان الذين سموها آلهة تشبيها بالله سبحانه وتعالى فجعلوا غير الخالق كالخالق فخولف فى خطابهم، لأنهم بالغوا فى عبادتهم وغلوا حتى صارت أصلاً فى العبادة وعبادة الخلق فرعاً فجاء الإنكار على وفق ذلك[٣].

فالقصد فى ذلك الزجر عن تشبيه غير الخالق بالخالق، فكان مقتضى الظاهر العكس، لأن الخطاب لعبدة الأوثان وإنما قلب التشبيه وجاءت المخالفة فى الخطاب؛ لأنهم لمبالغتهم فى عبادتها وغلوهم وارتكاس عقولهم وإسفافهم صارت كأن عبادتها أصلاً وعبادة الله عندهم فرعا فجاء التعبير وفق ذلك.

هذا ويرى السكاكى: «أن المراد بـ (من لا يخلق) هو الحى العالم القادر من الخلق لا الأصنام تعريضا بإنكار تشبه الأصنام بالله تعالى»[٤].

---

* هذا والتشبيه المقلوب مما اتفق العلماء على حسنه وبهائه ودوره فى أداء المعنى ولكن نجد من علماء البلاغة من يمنع وقوع هذا اللون من التشبيه فى كلامه تعالى وحاول تأويل ما ورد مقلوباً وأجاب عن هذه الآية بقوله: إن الكفار لم يشبهوا بل عبدوا من لا يخلق مكان من يخلق وليس ذلك بتشبيه، أما البارى فقد سلب التشبيه، لأنه استفهم على وجه الإنكار الذى هو فى قوة السلب، وفرق بين التشبيه وسلبه، فالتشبيه مشروط بكون وجه الشبه أظهر فى المشبه به، والسلب لا يستلزم ذلك، لأنه ليس فيه شبه حتى يكون أظهر أو أخفى وعليه فلا فرق بين التقديم والتأخير فى سلب التشبيه وقدم من يخلق لشرفه فقط.
انظر الإشارات والتنبيهات لمحمد بن على الجرجانى ص ١٩٢ تحقيق د. عبد القادر حسين.

(٢) سورة النحل آية ١٧.

(٣) انظر تفسير فتح الرحمن للشيخ زكريا الأنصارى ص ٣٠٢ الأيضاح جـ ٢ ص ٤٣ ومعترك الأقران للسيوطى جـ ١ ص ٢٠٧ ط بيروت والبرهان للزركشى جـ ٣ ص ٤٢٨.

(٤) انظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٦٣.

وقد فطن لهذا اللون من التشبيه القاضى عبد الجبار الهمذانى (ت ٤١٥هـ) فقد عرض لآية بها تشبه مقلوب ونص على أنه تشبيه حسن كما أرشد إلى أصل التشبيه والترتيب الطبيعى بقوله: «ربما قيل فى قوله تعالى: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)[١].

كيف يصح اتخاذ الهوى إلها؟

وجوابنا أنه «يطيع الهوى ويعدل عن طريقة العقل، وذلك تشبيه يحسن فى اللغة»[٢].

فقوله: كيف يصح اتخاذ الهوى إلها؟

إشارة إلى النظام الطبيعى للتشبيه قبل قلبه.

ويعلق صاحب البرهان على ذلك قائلاً: أصل التشبيه: أرأيت من اتخذ هواه إله؟ ثم قلب وصار «إلهه هواه».

فجعل المفعول الأول ثانياً، والثانى أولاً للتنبيه على أن الهوى أقوى وأوثق عنده من إلهه»[٣].

وقد فطن أصحاب الذوق السليم والطبع الصافى إلى جمال هذا اللون من التشبيه وقد تناول الأصمعى (ت ٢١٦هـ) أسلوب القلب حيث قال: سمعت أعرابياً يقول إنكم معاشر أهل الحضر لتخطئون المعنى إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول: كأنه الأسد ويصف المرأة بالحسن فيقول: كأنها

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٣.

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٣٨٦ متشابه القرآن جـ ٢ ص ٦١١، وانظر نشأة الفنون البلاغية د/ حمزة الدمرداش ص ١٦٠.

(٣) البرهان جـ ٣ ص ٤٢٨.

الشمس ولم لا يجعلون هذه الأشياء بهم أشبه[١].

وكأن هذا الأعرابى يرى أن صحة المعنى تكون فى قلب التشبيه والمبالغة فيه بتشبيه الأسد بالرجل الشجاع والشمس أشبه بالمرأة الحسناء.

كما أشاد ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) بهذا اللون من التشبيه وسماه (غلبة الفروع على الأصول).

يقول: «هذا فصل من فصول العربية طريف تجده فى معانى العربى كما تجده فى معانى الأعراب، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة»[٢].

وقد أولاه الإمام عبد القاهر عناية فائقة فى كتابه أسرار البلاغة فعقد له فصلاً كاملاً وبين متى يكون رائعاً أو غير رائع، والمكانة التى يحتلها من علم البيان.

يقول الإمام فى بيان منزلته: «والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص، وحدث بها نوع من الفرح عجيب فكانت كالنعمة لم تدركها المنة؛ لأنك ترى الفائدة قد ملأت يدك من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك، وترى الوجود من حيث توهمت العدم»[٣].

كما أشاد بهذا اللون أيضاً ضياء الدين بن الأثير حيث قال معلقاً على قول ابن المعتز فى تشبيه الهلال:

ولاح ضوء قمير كاد يفضحنا ☆☆☆ مثل القلامة قد قدت من الظفر

---

(١) نهاية الأرب فى فنون العرب جـ ٣ ص ١٨٥.
(٢) الخصائص جـ ١ ص ٣٠٠.
(٣) أسرار البلاغة ص ٢٠٦.

«إن من العادة أن تشبه القلامة بالهلال فلما صار ذلك مشهوراً متعارفاً حسن عكس القضية فيه، ولما شاع ذلك فى كلام العرب واتسع صار كأنه الأصل، وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ»[١].

القسم الثانى

ويشمل: قلب الإسناد وقلب المعطوف

ما سبق ذكره هو النوع الأول من القلب «قلب التشبيه» وهو مما اتفق البلاغيون على حسنه وبهائه ولكن القلب ليس خاصاً بالتشبيه فقد ذكر العلماء له ألواناً أخر منها: قلب الإسناد وقلب المعطوف، نراها بوفرة فى ضروب الكلام من القرآن والحديث، والشعر والنثر دون أن يكون هذا مساقاً للتشبيه.

منه قول الله تعالى: (فإنهم عدو لى إلا رب العالمين)[٢].

والمعنى: فإنى عدو لهم؛ لأن الأصنام لا تعادى أحداً.

عدو: مشتق من عدوت الشئ إذا جاوزته وخلفته، وهذا لا يكون إلا فيمن له إرادة، وأما عاديته فمفاعله لا تكون إلا من اثنين[٣]. وعدواته لها بغضه إياها وبراءته منها.

أى: أنا عدو آلهتهم وأصنامهم وكل معبود يعبدونه من دون الله.

يقول الإمام الطبرى: «يقول قائل: كيف يوصف الخشب والحديد والنحاس بعداوة بنى آدم؟

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ١٦٤.
(٢) سورة الشعراء، آية: ٧٧.
(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ٣ ص ٢٩١.

فإن معنى ذلك: أنهم عدو لى لو عبدتهم يوم القيامة ومعنى هذا الكلام: أفرأيتم كل معبود لكم ولأبائكم فأنى برئ لا أعبده إلا رب العالمين»(١).

ومنه قوله تعالى: (وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون)(٢).

الأصل: وما تخدعهم إلا أنفسهم؛ لأن الأنفس هى المخادعة وهى المسولة قال تعالى: «بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل»(٣).

أصل الخداع إيهام الباطل وتصوره بصورة الحق، وخدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأمانى الخالية.

ومنه قوله تعالى: (وجاءت سكرة الموت بالحق)(٤).

ورد على القلب والأصل وجاءت سكرة الحق بالموت وهكذا فى قراءة أبى بكر.

وقوله تعالى: (خلق الإنسان من عجل)(٥).

هذا من المقلوب وإنما خلق العجل من الإنسان وخلقت العجلة منه، يدل على ذلك قوله تعالى: (وكان الإنسان عجولا)(٦).

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ١٩ ص ٥٣.
(٢) سورة البقرة آية ٩.
(٣) سورة يوسف آية ١٨.
(٤) سورة ق آية ١٩.
(٥) سورة الأنبياء آية ٣٧.
(٦) سورة الإسراء آية ١١.
وقد حمله ابن جنى على الوصف بالمصدر قائلا: الأحسن أن يكون تقدره خلق الإنسان من العجلة لكثرة فعله إياه واعتماده له وهو أقوى فى المعنى من القلب، لأنه أمر قد اطرد واتسع.

وقوله تعالى: (فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون)[١] أصل الكلام: فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم؛ لأن نظره ما يرجعون من القول غير متأت مع توله عنهم.

ومنه قوله تعالى: (ثم دنا فتدلى)[٢] أى تدلى فدنا؛ لأنه بالتدلى نال الدنو، والقرب إلى المنزلة الرفيعة وإلى المكانة.

كما ورد فى الحديث الشريف أيضاً فقد روى عن الأعمش عن طلحة عن عبد الرحمن ابن عوسجة عن البراء بن عازب قال قال: ﷺ [زينوا القرآن بأصواتكم][٣].

والمعنى: زينوا أصواتكم بالقرآن، فقدم وأخر فى الكلام فقلب المعنى، وحمل الحديث على القلب أولى؛ لأن القرآن الكريم وهو كلام الخالق لا يجوز أن يزينه صوت المخلوق، بل هو بالتزيين والتحسين لغيره أولى.

كما ورد القلب بكثرة فى أشعار العرب أيضاً.

والحق أنه فى كون القلب من أساليب البلاغة خلاف، وإذا أردنا أن نستبين آراء العلماء فى ذلك، نجد أن العلماء والنقاد قد أختلفوا فيه، وساق كل منهم الأدلة والحجج والبراهين لتأييد وجهة نظره سواء بقبول هذا الأسلوب أو رفضه.

وهذا سيبويه (ت ١٨٠هـ)

إذا وجد فى الكلام قلباً فإنه يرده، ويصفه بالرداءة والبعد عن الجودة،

---

(١) سورة النمل آية ٢٨.

(٢) سورة النجم آية ٨ وانظر البرهان جـ ٣ ص ٢٨٨ - ٢٩٢.

(٣) سنن أبى داود جـ ٢ ص ٧٥ كتاب الصلاة ط. دار الحديث القاهرة.

ويرى أن هذا النوع جرى على سعة الكلام، وتأويله هو ما يكون به صحة الكلام وحسنه بقوله: «وأما قوله: أدخل فوه الحجر، فهذا جرى على سعة الكلام، والجيد أدخل فاه الحجر كما قال: أدخلت فى رأسى القلنسوة، والجيد أدخلت فى القلنسوة رأسى[1].

هكذا يبين سيبويه أن الكلام بالقلب لا ينصف بالجودة، وإنما جرى فى الكلام على الاتساع.

هذا وإذا كان سيبويه يصف القلب بالقبح والرداءة والبعد عن الجودة فإننا نجد الفراء (ت ٢٠٧هـ) قد أجاز القلب فى القرآن والشعر.

وإن كان يبدو فى كلامه الاضطراب بين صحة القلب على القياس وقبوله على الضرورة.

والقلب عنده من الأساليب التى ساغتها العرب وجاء بها القرآن الكريم، ويستشهد على صحة وجود القلب فى القرآن بالكثير من الآيات القرآنية التى يفسرها على القلب.

يقول فى قوله تعالى: «قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتانى رحمة من عنده فعميت عليكم» الآية[2].

فعميت عليكم أى: فعميتم عليها.

يقول الفراء: سمعت العرب تقول قد عمى على الخبر وعمى على بمعنى واحد وهذا مما حولت العرب الفعل إليه وليس له، وهو الأصل لغيره،

---

(١) انظر الكتاب جـ ١ ص ٩٢.
فن البلاغة د/ عبد القادر حسين ص ٣١٤.

(٢) سورة هود آية ٢٨.

ألا ترى أن الرجل الذى يعمى عن الخبر أو يعمى عنه، ولكنه فى جوازه مثل قول العرب: دخل الخاتم فى يدى والخف فى رجلى، وأنت تعلم أن الرجل التى تدخل فى الخف والإصبع فى الخاتم، فاستخفوا بذلك إذا كان المعنى معروفا[١].

ويقول فى قوله تعالى: «وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة»[٢] نوؤها بالعصبة أن تثقلهم، والعصبة هنا أربعون رجلا، ومفاتحه خزائنه، والمعنى: أن مفاتحه لتنئ العصبة أى تميلهم من ثقلها فإذا أدخلت الباء قلت: تنوء بهم وتنئ بهم كما قالوا (آتونى أفرغ عليه قطرا)[٣] والمعنى: آتونى بقطر أفرغ عليه ومثله (فأجاءها المخاض) ومعناه: فجاء بها المخاض.

وقد قال رجل من أهل العربية إن المعنى: ما إن العصبة لتنوء بمفاتحة فحول الفعل إلى المفاتح[٤].

ويقول فى قوله تعالى: «فضحكت فبشرناها بإسحاق»[٥] قال بعض المفسرين هذا مقدم ومؤخر والمعنى فيه: فبشرناها بإسحاق فضحكت بعد البشارة، وهو مما يحتمله الكلام.

أيضا يقول فى قوله تعالى (لكل أجل كتاب)[٦] معناه: لكل كتاب أجل؛ ومثله قوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق) أى: جاءت سكرة الحق

---

(١) معانى القرآن للفراء جـ ٢ ص ١٢.
(٢) سورة القصص آية ٧٦.
(٣) سورة الكهف آية ٩٦.
(٤) سورة مريم آية ٢٣، معانى القرآن جـ ٢ ص ٣١٠.
(٥) سورة هود آية ٧١، وانظر معانى القرآن للفراء جـ ٢ ص ٢٢.
(٦) سورة الرعد آية ٣٨.

بالموت؛ لأن الحق أتى بها، وتأتى به، وكذلك تقول لكل آجل مؤجل، ولكل مؤجل آجل، والمعنى واحد(١).

ومثله قوله تعالى (فلا تحسبن الله خلف وعده رسله)(٢) والمعنى مخلف رسله وعده.

ويقول فى قوله تعالى: (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون)(٣).

وذلك فى العربية بين أنه استحثه فقال: اذهب بكتابى هذا وعجل ثم أخر (فانظر ماذا يرجعون) ومعناها التقديم(٤).

هكذا يفسر الفراء الآيات على القلب، كما أجاز الفراء القلب فى الشعر أيضاً ما دام لا يؤدى إلى لبس فى المعنى.

ويبين ذلك بقوله: إذا كان الفعل يقع على شيئين مختلفين يجوز إضافة الفعل إلى أحدهما تقول: هو كاسى عبد الله ثوباً، ومدخله الدار، ويجوز: هو كاسى الثوب عبد الله ومدخل الدار زيداً.

ومثله قول الشاعر:

ترى الثور فها مدخل الظل رأسه ☆☆☆ وسائره باد إلى الشمس أجمع

فأضاف (مدخل) إلى (الظل) وكان الوجه أن يضيف (مدخل) إلى (الرأس)(٥).

---

(١) سورة ق آية ١٩، وانظر معانى القرآن للفراء ج ٢ ص ٦٥.

(٢) سورة إبراهيم آية ٤٧.

(٣) سورة النمل آية ٢٨.

(٤) معانى القرآن للفراء ج ٢ ص ٢٩١.

(٥) انظر معانى القرآن للفراء ج ٢ ص ٨٠.

البيت يصف هاجرة ألجأت الثيران إلى كنسها فترى الثور قد أدخل رأسه فى ظل لما=

وهكذا نجد الفراء يجيز القلب فى القرآن الكريم، ويعده من الأساليب التى ساغتها العرب أما فى الشعر فهو جائز ما دام لا يؤدى إلى لبس فى المعنى.

هذا وإذا ذهبنا إلى أبى عبيدة (ت ٢١٠هـ) لنرى موقفه من القلب نجده قد مال برأيه إلى الفراء وأثبت القلب فى القرآن نبين ذلك بقوله: ومن المقلوب قوله تعالى (وقد بلغنى الكبر)[١].

أى بلغت الكبر، والعرب تصنع مثل هذا تقول: «هذا القميص لا يقطعنى أى أنت لا تقطعه»[٢].

ويقول فى قوله تعالى: (خلق الإنسان من عجل)[٣]

مجازه خلق العجل من الإنسان، وهو العجلة والعرب تفعل هذا إذا كان الشئ من سبب الشئ بدأوا بالسبب[٤].

وهكذا يثبت أبو عبيدة القلب فى القرآن، لأن القلب ورد كثيراً فى كلام العرب، وقد نزل القرآن بلغة العرب ولم يلجأ أبو عبيدة كغيره من العلماء إلى التأويل، وإنما حمل الآيات على طبيعتها وأثبت ما فيها من قلب ودلل على جواز ذلك بوروده فى كلام العرب.

وعلى أية حال يبدو أن الفراء ومعاصره أبا عبيدة كانا أكثر تحررا من

= يجده من شدة الحرارة وساتر جسده بارز فى الشمس والأصل مدخل رأسه الظل.

(١) سورة آل عمران آية ٤٠.

(٢) مجاز القرآن جـ ١ ص ٩٢.

(٣) سورة الانبياء آية ٣٧.

(٤) انظر مجاز القرآن جـ ٢ ص ٣٩.

خلفهما ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) الذى يرفض القلب رفضا نهائياً فى القرآن الكريم وغيره قائلاً: إنه يجب أن ينزه عنه كتاب الله.

وقد بين ابن قتيبة أن المقلوب منه: أن يقدم ما يوضحه التأخير، ويؤخر ما يوضحه التقدم ومثل له بقوله تعالى: (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله)[١].

أى مخلف رسله وعده؛ لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل فتقول: أخلفت الوعد وأخلفت الرسل.

ويقول فى قوله تعالى: (بل الإنسان على نفسه بصيره)[٢] أى: بل على الإنسان من نفسه بصيرة، يريد شهادة جوارحه عليه؛ لأنها منه فأقامة مقامها[٣].

وهذا يقع فيه التأويل أى: يجوز حمله على التأويل.

كما بين أن منه أيضاً: ما قلب على الغلط كقول خداش بن زهير:

وتركب خيل لا هوادة بينها ☆☆☆ وتعصى الرماح بالضياطرة الحمر[٤]

أى: تعصى الضياطرة بالرماح، وهذا ما لا يقع فيه التأويل؛ لأن الرماح لا تعصى بالضياطرة، وإنما يعصى الرجال بها أى: يطعنون.

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤٧.
(٢) سورة القيامة أية ١٤.
(٣) انظر تأويل مشكل القرآن ص ١٩٣.
(٤) الهودة المصالحة والموادعة، الضيطار: التاجر لا يبرح مكانه، وقيل الضوطرى: الحمقى، والضيطر: اللئيم الضخم، ونعصى بالرمح نضوب به ونطعن البيت فى جمهرة أشعار العرب ص ١٠٨.

وقد ذهب بعض أصحاب اللغة فى قوله تعالى: (وإنه لحب الخير لشديد)[١] إلى مثل هذا فى القلب بقولهم: أى إن حبه للخير لشديد.

وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل لو لم يجد له مذهبا؛ لأن الشعراء تقلب اللفظ وتزيل الكلام على الغلط أو على طريق الضرورة للقافية، أو لاستقامة وزن البيت.

وإنما المراد بقوله: «وإنه لحب الخير لشديد»[٢] أى وإنه لحب المال لبخيل، والشدة البخل ها هنا، يقال: رجل شديد ومتشدد.

والله تعالى لا يغلط ولا يضطر[٣]. فالشدة معناها المتبادر والأعم القوة قال الزمخشرى فى تفسير الآية: «وإنه لحب المال، وإيثار الدنيا وطلبها قوى مطيق وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس نقول هو شديد لهذا الأمر قوى له إذا كان مطيقا له ضابطا»[٤].

وبذلك فقد أخرج ابن قتيبة الشدة من معناها المتبادر الأعم إلى البخل وهذا غير مقبول وهكذا كان ابن قتيبة فى رفضه للقلب.

لكننا نلاحظ أن ابن قتيبة رغم رفضه للقلب رفضا تاما، ووجوب تنزيه كتاب الله عنه، ومحاولة تأويل ما ورد فى القرآن مقلوبا إلا أنه يقف أمام بعض الآيات ولا يجد لها وجها من التأويل.

فيقول فى قوله تعالى: (قد بلغنى الكبر)[٥] أى بلغته.

---

(١) سورة العاديات آية ٨ وانظر تأويل مشكل القرآن ص ٢٠٠.
(٢) سورة العاديات آية ٨.
(٣) تأويل القرآن ص ٢٠٠ - ٢٠٣.
(٤) أنظر تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٧٨، البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى ص ٤٩ ط أولى.
(٥) سورة آل عمران آية ٤٠.
سورة الانبياء آية ٣٧، تأويل مشكل القرآم ص ١٩٧.

وقوله تعالى: (خلق الإنسان من عجل)[١] أى خلق العجل من الإنسان دون أن يحمل الآية على التأويل، ويعلق قائلاً: كذلك قال أبو عبيدة، وقد أجاب أبو عبيدة فى تعليقه على الآية أن فى الكلام قلبا.

ويقول ابن قتيبة معلقاً على قول رؤبة بن العجاج:

ومهمة مغبرة أرجاؤه ☆☆☆ كأن لون أرضه سماؤه

كان الوجه أن يقال: كأن لون سمائه من غبرتها لون أرضه فقلب لأن اللونين استويا.

ومعنى هذا الكلام أن استواء اللونين كان سببا فى المجئ بالقلب فالقلب جاء ليؤدى غرضاً بلاغياً وهو المبالغة فى وصف لون السماء بالغبرة ولا توجد هذه المبالغة فى ترك القلب لاشعاره بأن لون السماء قد بلغ من الغبرة إلى حيث يشبه به لون الأرض مع أن الأرض أصل فيه.

وإذا كان ابن قتبة يرفض القلب فإننا نرى المبرد (ت ٢٨٥هـ) فى كتابه «وما اتفق لفظه واختلف معناه» يقبل هذا الأسلوب بشرط عدم اللبس.

فيقول: «القلب جائز للاختصار، يقولون: أدخلت القلنسوة فى رأسى وأدخلت الخف فى رجلى، وإنما يكون هذا فيما لا يكون فيه لبس ولا إشكال»[٢].

كما أجازه المبرد فى كامله بقوله: والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار، قال تعالى: «وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة» والعصبة تنوء بالمفاتيح[٣].

---

(١) قد سبق شرح البيت ضمن قلب التشبيه جـ ٣.

(٢) انظر ص ٣٨، انظر البرهان للزركشى جـ ٣ ص ٢٨٨.

(٣) سورة القصص آية ٧٦ - الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ط بيروت ط ١ ص ٢١٧.

وحين يتناول ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) أسلوب القلب يبرز لنا أهميته البلاغية وأنه ليس فقط طريقاً للاتساع فى اللغة بل يأتى لغرض أسمى من ذلك وهو رفع الشك، ولم يكتف ابن جنى بهذه العلة البلاغية، بل يبين لنا الخطوات المتعددة التى تخطوها حتى نصل منها إلى ما يسمى بالقلب وحتى يصبح قاعدة يمكن أن نطبقها فيما سلك ابن جنى من أمثلة تتعلق بالفعل المتعدى إلى مفعولين.

يتبين ذلك من تعقب ابن جنى على قول ابن مجاهد فى قراءة ابن عامر «وحملت الأرض»[1] قال ابن مجاهد: وما أدرى ما هذا؟

قال أبو الفتح: هذا الذى تبشع على ابن مجاهد حتى أنكره من هذه القراءة صحيح واضح، وذلك أنه أسند الفعل إلى المفعول الثانى حتى كأنه فى الأصل: وحملنا قدرتنا أو ملكاً من ملائكتنا الأرض، ثم أسند الفعل إلى المفعول الثانى فبنى له فقيل: وحملت الأرض وهذا كقولك: ألبست زيدا الجبة.. فيجوز مع استيفاء المفعول الأول أن يبنى الفعل للمفعول الثانى فتقول: ألبست الجبة زيداً على طريق القلب للاتساع، وارتفاع الشك فيجوز على هذا أن تقول: (حملت الأرض الملك) فتقيم الأرض مقام الفاعل مع ذكر المفعول الأول فما ظنك بجواز ذلك وحسنه، بل بوجوبه إذا حذف المفعول الأول؟

وكذلك أطعمت زيدا الخبز، وأطعم زيد الخبز، وتتسع فتقول: أطعم الخبز زيدا ثم تحذف زيدا، فلا تجد بدا من إقامة الخبز مكان الفاعل فتقول: أطعم الخبز ومثله أركب الفرس، وأبث الحديث، وكست الجبة، وأطعم الطعام، وسقى الشراب، ولقى الخير، ووقى الشر، ورحم الله ابن مجاهد فقد كان كبيراً

(١) سورة الحاقة آية ١٤.

فى موضعه مسلماً فيما لم يمهر به[1].

وهكذا يعلمنا ابن جنى كيف يجرى القلب فى كل فعل تعدى إلى مفعولين فإذا بنيت الفعل للمفعول الأول فلا قلب ولا اتساع، وإذا أردت أن تتسع وتلاحظ المعنى البلاغى فى ارتفاع الشك، وإرساء اليقين سلكت طريقاً آخر وأسندت الفعل إلى المفعول الثانى.

وقد أشاد ابن جنى بما فى القلب من حسن خاصة إذا حذف المفعول الأول وبقى الكلام على الفعل والمفعول الثانى.

وقد خفى هذا الحسن على ابن مجاهد رحمه الله إذ لا علاقة له بأمور النحو والبلاغة كما يشير ابن جنى حين يرميه بذلك فى أدب جم، «فلقد كان كبيراً فى موضعه مسلما فيما لم يمهر به»، إلا أن هذا لم يخفى على من هو كابن جنى فى حسن الاستيعاب وعمق التفكر، وشمول الإدراك، والمهارة اللغوية وكثرة الإطلاع.

ويقول ابن جنى «والقلب باب شواهده كثيرة»[2].

وإذا كان ابن جنى يشيد بما فى القلب من حسن ويبرز لنا أهميته البلاغية فإننا نرى ابن فارس* (ت ٣٩٥هـ) يسير على نهج الفراء وأبى عبيدة والمبرد وابن جنى.

---

(١) انظر المحتسب جـ ٢ ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) المحتسب جـ ٢ ص ١١٧، وانظر فن البلاغة د/ عبد القادر حسين ص ٣١٦ - ٣١٧.

* هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت (٣٩٥هـ) قيل ولد بقزوين ونشأ بالرى وقيل أصله من همذان، رزق البركة والتوفيق فى التأليف وبلغت مؤلفاته سبع وأربعون.

فقد أجاز القلب فى القرآن والشعر على حد سواء واعتبره من سنن العرب، كما أورد فى كتابه «الصاحبى» العديد من الآيات القرآنية التى جاءت على أسلوب القلب دون أن يلجا إلى تأويلها كغيره من العلماء.

فيقول فى قوله تعالى: (وحرمنا عليه المراضع من قبل)[١] معلوم أن التحريم لا يقع إلا على من يلزمه الأمر والنهى وإذا كان كذا فالمعنى: فحرمنا على المراضع أن ترضعه ووجه تحريم إرضاعه عليهن أن لا يقبل إرضاعهن حتى رد إلى أمه[٢].

ومثله فى كتاب الله جل ثناؤه (خلق الإنسان من عجل)[٣].

وإنما خلق العجل من الإنسان.

وهكذا نجد ابن فارس يعد أسلوب القلب من سنن العرب ويفسر الآيات على ظاهرها بإثبات القلب فيها دون اللجوء بها إلى التأويل.

هذا وإذا كان ابن فارس مال برأيه إلى من قال بجواز القلب فى القرآن وفى الشعر على حد سواء فإن ابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ) ينتصر لرأى ابن قتيبة واعتبر أن القلب مفسد للمعنى وصارف له عن وجهه وقد اشترط لوضع الألفاظ موضعها ألا يكون الكلام مقلوباً؛ لأنه يفسد المعنى ويصرفه عن وجهه[٤].

وضرب لذلك أمثلة:

---

(١) سورة القصص آية ١٢.
(٢) انظر الصاحبى لابن فارس ص ٣٣١ تحقيق السيد أحمد صقر.
(٣) سورة الأنبياء، آية ٣٧.
(٤) انظر سر الفصاحة لابن سنان ص ١١٤.

منها قول عروة بن الورد العبسى:

فديت بنفسه نفسى ومالى ☆☆☆ ما ألوك إلا ما أطيق

يريد أن يقول: فديت نفسه بنفسى.

وهكذا نرى ابن سنان يثبت أن القلب فى كلامه العرب كثير، ولم ينكره إلا أنه ينص على أن القلب يفسد المعنى ويصرفه عن وجهه.

أما موقفه من القلب فى القرآن الكريم فقد رفضه وأنكره تماماً وحاول تأويل ما ورد منه مقلوباً.

يقول فى قوله تعالى: (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة)[١]

فليس من هذا بشئ، وإنما المراد والله أعلم أن المفاتح تنوء بالعصبة أى تميلها من ثقلها. وكذلك قوله عز اسمه: (وإنه لحب الخير لشديد)[٢].

ليس على ما يزعم بعضهم – المراد به: وإن حبه للخير لشديد، بل المقصود إنه لحب المال لبخيل، والشدة البخل، أى من حبه للمال يبخل[٣].

فإذا وصلنا إلى أبى يعقوب السكاكى، وهو ذاك الرجل الذى استقرت على يديه علوم البلاغة، وأخذ كل لون من ألوانها مكانه المعين منها فى (المعانى، والبيان، والبديع) نجده يعد القلب داخلاً فى علم المعانى.

ولم ينظر السكاكى إلى هذا الأسلوب نظرة إهدار وإجحاف كما نظر إليه المتقدمون، وإنما كانت نظرة السكاكى لأسلوب القلب نظرة اعتبار وإنصاف.

---

(١) سورة القصص آية ٧٦.

(٢) سورة العاديات، آية ٨.

(٣) انظر سر الفصاحة ص ١١٦.

فرأى أن القلب يورث الكلام ملاحة ويصل به إلـى كمـال البلاغـة كمـا اسـتدل على ورود القلب فى القرآن الكريم وأشعار الشعراء. وغيرهما.

نبين ذلك بقوله: (القلب: شعبة من الإخراج لا علـى مقتضـى الظـاهر، ولها شيوع فى التراكيب وهى مما يورث فى الكلام ملاحة ولا يشجع عليها إلا كمال البلاغة تأتى فى الكلام والأشعار*.

كما ورد القلب فى التنزيل قال تعالى: (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا)(٢) أى جاءها بأسنا فأهلكناها.

وقوله تعالى: (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تـول عنهم فـانظر مـاذا رجعون)(٣) المراد فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم(٤).

هكذا قبل السـكاكى القلب قبـولا مطلقـا، ودلل علـى جـوازه بالشـواهد المختلفة من الآيات القرآنية، والأبيات الشعرية.

ولم يكتف السكاكى بقبول أسلوب القلب وجوازه فقـط بـل نجده يطنـب فى مدح هذا الأسلوب البلاغى، ويجعله مما يزيد الكلام لطافة وملاحة ويصـل به إلى كمال البلاغة ولكن إذا عرضنا هذا اللون من التعبـير علـى النقـاد وهـم أهل بصر ومعرفة بالكلام نراهم مختلفن فى قيمته الفنية وأثره البلاغى.

حيث يرى قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) أن القلب مـن عيـوب ائتـلاف

---

* تناول السكاكى الأبيات الشعرية التى سبق ذكرها ص ١٦، ١٥.
(٢) سورة الأعراف آية ٤.
(٣) سورة النحل آية ٢٨.
(٤) انظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ٩١.

المعنى والوزن معاً[1].

المقلوب أن يضطر الوزن الشاعر إلى إحالة المعنى وقلبه إلى خلاف ما قصد به.

يمثل لذلك

بقول عروة بن الورد:

فلو أنى شهدت أبا سعاد ☆☆☆ غداة غدا بمهجته يفوق
فديت بنفسه نفسى ومالى ☆☆☆ وما آلوك إلا ما أطيق*

أراد أن يقول: فديت نفسه بنفسى فقلب المعنى.

ونلاحظ أن الناقد قدامة بن جعفر لم ينص على القلب فى القرآن ولم يبين لنا موقفه من القلب فى القرآن، هل يحمله هو الآخر على التأول باعتباره عيباً من عيوب المعنى أم لا؟

لكن من الغريب أن نرى قدامة بن جعفر يرفض القلب ويعده عيباً من عيوب المعنى فى حين نجده يقبل الغلو فى المعنى ويرى أنه أفضل من التوسط، لأنه يصير بمنزلة المثل الذى يضرب للشئ الذى بلغ منتهى العظم أو منتهى الدناءة والخسة ولذلك فقد استحسن قول أبى نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ☆☆☆ لتخافك النطف التى لم تخلق**

وعلق عليه قائلاً:

---

(١) نقد الشعر لقدامه ص ٢٠٩.

* ما آلوك: لم أقصر فيك.

** أخفت هل الشرك: أفزعتهم وروعتهم.
النطفة: ماء الرجل جمعه نطف.

إن فى قول أبى نواس دليلاً على عموم المهابة ورسوخها فى قلب الشاهد والغائب فأراد أبو نواس به المثل وبلوغ النهاية فى النعت وكذا كل غال مفرط فى الغلو إذا اتى بما يخرج عن الموجود فإنما يذهب فيه إلى تصييره مثلاً وقد أحسن أبو نواس حيث أتى بما ينبئ عن عظم الشئ الذى وصفه[١].

هكذا قبل قدامة الغلو فى المعنى فى حين يرفض القلب ويعده عيباً من عيوب المعنى دون نظر إذا كان أسلوب القلب يؤدى غرضاً بلاغياً أم لا.

أما القاضى الجرجانى (ت ٣٦٦هـ) نراه يخبرنا بأن القلب كثير فى شعر العرب[٢].

ولم يعقب على ذلك بشئ، ومعنى هذا الكلام أنه يقبل القلب ولا يرفضه بل يحبذه؛ لأن القول بأنه كثير فى شعر العرب دليلاً على سلامته وصحته وحسنه، لأن الشعراء يتوخون الحسن والجودة فى أشعارهم.

ولو كانت كثرته بسبب الضرورة الشعرية لعبر عن ذلك لكنه اقتصر على الإخبار بأنه كثير فى شعر العرب[٣].

وكذلك نرى الآمدى (ت ٣٧٠هـ) يرفض هذا الأسلوب ويرى أن القلب إنما جاء فى كلام العرب على السهو، وكلام الله يتعالى عن ذلك.

ولهذا نراه يؤول ما ورد منه فى القرآن الكريم ويعتبره صحيحاً مستقيماً لا قلب فيه.

---

(١) انظر نقد الشعر ص ٩٤ - ٩٥.
(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ص ٤٦٩.
(٣) انظر فن البلاغة د/ عبد القادر حسين ص ٣١٤.

يبين ذلك بقوله: «المتأخر لا يرخص له فى القلب؛ لأن القلب إنما جاء فى كلام العرب على السهو، والمتأخر إنما يحتذى على أمثلتهم ويقتدى بهم وليس ينبغى له أن يتبعهم فيما سهوا فيه.

فإن قيل: إن القلب قد جاء فى القرآن، ولا يجوز أن يكون ذلك على سبيل السهو والضرورة؛ لأن كلام الله عز وجل يتعالى عن ذلك.

رداً على هذا يؤول الآمدى ما ضرب من أمثلة وشواهد على وجود القلب فى القرآن ويعتبرها صحيحة مستقيمة فيقول فى قوله تعالى (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة)[1].

وقوله تعالى (ثم دنا فتدلى)[2].

يقولون: إن فى هذا قلباً؛ لأن المعنى: إنما العصبة تنوء بالمفاتيح.

أى: تنهض بثقلها، والآية الثانية المعنى فيها: إنما هو تدلى فدنا.

وينفى الآمدى وجود القلب فى الآيتين السابقتين بقوله: «هذا ليس بقلب إنما هو صحيح مستقيم، إنما أراد الله تعالى اسمه: ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة، أى: تميلها من ثقلها، وأراد بقوله: (ثم دنى فتدلى) إنما كان تدليه عند دنوه واقترابه[3].

هكذا ذهب الآمدى إلى أن ما جاء على أسلوب القلب صحيح لا قلب فيه.

---

(١) سورة القصص آية ٧٦.

(٢) سورة النجم آية ٨.

(٣) الموازنة للآمدى ص ١٩٤، ١٩٥ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

هذا بالنسبة للقلب فى القرآن الكريم، أما القلب فى الشعر عنده يبدو لى أن الآمدى جعل هناك قسمين لما ورد فى الشعر مقلوباً:

القسم الأول: قلب سائغ حسن وهو مقبول.

القسم الثانى: قلب قبيح مستكره غير حسن وهذا لا يجوز فى الشعر ولا فى القرآن، وهو ما ورد فى كلامهم على سبيل الغلط.

يتضح ذلك من تعليقه على قول أبى النجم:

قبل دنو الأفق من جوزائه.

بقوله: الجوزاء إذا دنت من الأفق فقد دنا الأفق منها، وليس هذا من القلب المستكره، ومثله فى الشعر كثير نحو قول الشاعر:

ومهمهة مغبرة أرجاؤه ☆☆☆ كأن لون أرضه سماؤه[1]

وجعل من القلب القبيح المستكره قول الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما ☆☆☆ كان الزناء فريضة الرجم[2]

وإنما الرجم فريضة الزناء.

وهذا القلب قبيح لا يجوز فى الشعر ولا فى القرآن؛ لأنه جاء فى كلامهم على سبيل الغلط[3].

ولنا هنا وقفة مع الإمام أبى القاسم الحسن بن بشير الآمدى. لمناقشة رأيه فى القلب.

---

(١) انظر الموازنة ص ١٩٥ البيت سبق بيانه ص ٣.

(٢) البيت منسوب فى اللسان للنابغة الجعدى.

(٣) انظر الموازنة للآمدى ص ١٩٥.

لقد جعل سبب القلب هو السهو، ومن ثم لم يجزه لمتأخر؛ لأن المتأخر لا ينبغى له أن يتبع العرب فيما سهوا فيه وهذا كلام غير مسلم به.

فالقول بأن سبب القلب هو السهو ليس صحيحاً، بل إن له سبباً آخر غير ما ذكر وهو المبالغة فى أداء المعنى وإظهار فضل كمال الأمر فيه، أيضاً لهذا الأسلوب جمال فى التعبير وروعة فى التصور فقلب الشعراء فى أشعارهم لم يكن عن سهو ونسيان إنما كان عن قصد وتعمد، وكان القلب هو سر روعة الكلام وجماله.

والقلب يعطى مبالغة فى المعنى تتولى هذه المبالغة لو جرى الكلام على سننه المألوف.

وكيف نمنع المتأخرين عنه، وقد استعملته العرب لتؤدى به فضل مبالغة فى المعنى على أكمل وجه وأتمه(١).

وإن كان بعض الشعراء قد ضل أحياناً النهج القويم فأحال وأخطأ.

فليس من العدل أن يرفض هذا الأسلوب رفضاً نهائياً نتيجة لخطأ البعض.

إنما الإنصاف ألا يقبل ما ورد من القلب على سبيل الخطأ.

وهكذا نجد العلماء والنقاد بين قبول ورفض لهذا الأسلوب البلاغى على الرغم من ورده فى القرآن الكريم والحديث الشريف وفصيح كلام العرب.

كما رأينا أن القلب عند سيبويه يبعد بالكلام عن الجودة.

---

(١) انظر الإيضاح للقزوينى تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى بتصرف ج ٣ ص ٢٣٠.

وابن قتيبة يرفض القلب رفضاً نهائياً ويحاول تأويل ما ورد فى الكلام مقلوباً.

ويرى قدامة بن جعفر أن القلب من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معاً.

والحسن بن بشر الآمدى يؤول ما ورد فى الكلام مقلوباً، ويرى أن ما جاء فى كلامهم على الغلط هذا قلب قبيح لا يجوز فى القرآن ولا فى الشعر.

وعلى الجانب الآخر نجد أن الفراء أجاز القلب فى القرآن وفى الشعر ويبدو أن القلب عنده من الأساليب التى ساغتها العرب.

كما نرى أن أبا عبيدة يجيز القلب فى القرآن.

كما ذهب المبرد إلى أن القلب يأتى لفائدة الاختصار.

والقاضى الجرجانى يخبرنا بأن القلب كثير فى كلام العرب.

وابن جنى يبرز لنا أهميته البلاغية، فيحد فيه لونا من ألوان البلاغة فهو يأتى فى الكلام ليس للاتساع فحسب؛ بل لرفع الشك.

وابن فارس أجاز القلب فى القرآن وفى الشعر على حد سواء واعتبره من سُنن العرب.

وهو عند السكاكى يورث الكلام ملاحة، ويصل به إلى كمال البلاغة[1].

هكذا كان موقف العلماء من هذا الأسلوب البلاغى.

وأرى أن القلب يأتى أيضاً للتخفيف فقولنا: أدخلت القلنسوة فى الرأس

(١) مفتاح العلوم ص ١١٠.

والخاتم فى الأصبع لأن القلنسوة والخاتم ظرف والرأس والأصبع مظروف فالمناسب أن يتحرك بالمظروف نحو الظرف لكن قلب الكلام رعاية لهذ الاعتبار.

ولكنى أتساءل؟

إذا كان هناك جمع من العلماء والنقاد يرفضون هذا الأسلوب البلاغى وعلى رأسهم ابن قتيبة الذى لجأ إلى تأويل بعض الآيات التى ورد بها على القلب، وفى الوقت نفسه يعزف عن تأول البعض الآخر حيث لا يجد مبرراً لتأويل جميعها.

فما مصير هذه الآيات التى لم يجد لها ابن قتيبة وجهاً لتأويلها؟

وما مصير الآيات التى ساقها الفراء وغيره من العلماء كدليل على صحة القلب وهى لا تحصى عداً، كما حملها المفسرون أيضاً على القلب؟

هل نلجأ إلى التأويل بما فيه من التكلف والثقل على النفس وحمل الكلام على غير وجهه، واللجوء به إلى غير طبيعته؟ نحن فى غنى عن هذا التكلف وإجهاد النفس بغير طائل، وحرى بنا أن نبحث لهذه الآيات عن مغزى بلاغى أفضل من حملها على التأويل.

. لا أدرى لماذا يلجأ العلماء إلى التأويل وإخراج الألفاظ من معناها المتبادر إلى معان آخر، فقد أخرج القائلين بالتأويل «الشدة» فى قوله تعالى (وإنه لحب الخير لشديد) من معناها المعروف الأعم وهو القوة إلى معنى البخل حتى لا تحمل الآية على القلب ويكون المعنى: إن حبه للخير لشديد.

وأرى أن هذا إجحاف لحق أسلوب بلاغى له قيمته وأثره فى أداء المعنى حيث نجد فى هذا الأسلوب روعة فى التصوير وجمال فى التعبير مما يؤثر فى النفوس ويهز القلوب.

ولنحلل بعض الآيات القرآنية التى وردت على القلب لنرى ما فيها من لطائف بلاغية لها دروها فى آداء المعنى.

قال تعالى: (وأزلفت الجنة للمتقين)[١].

يقول الشيخ زكريا الأنصارى:

إن قلت: كيف قربت مع أنها لم تنتقل من مكانها؟

قلت: فيها قلب، أى وأزلف المتقون إلى الجنة، كما يقول الحاج إذا دنوا من مكة: قربت مكة منا[٢].

فالقلب جئ فى الآية ليؤدى غرضاً بلاغياً، وهو المبالغة فى تصوير فرحة هؤلاء السعداء وكأن الجنة لفرحتها وبهجتها بهذه الكوكبة المباركة، تنتقل من مكانها اقتراباً منهم، وتفتح أبوابها سروراً بهم كى تفوز بلقائهم، وتأنس بدخولهم فيها، وعندما تدنو منهم ينظرون إليها، فيغتبطوا بما ينتظرهم فيها من نعيم، فقلب التعبير لهذا السر البلاغى.

أيضاً منه قوله تعالى: (يوم يعرض الذين كفروا على النار)[٣].

المعنى: يعاينوها وتصبح ظاهرة أمامهم.

الآية وردت على القلب والأصل: تعرض النار على الذين كفروا؛ لقوله تعالى: (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا)[٤] أى أبرزناها حتى نظر إليها الكفار؛ ولا شك أن فى هذا التعبير مزيد من السخرية فالقوم متاع للنار

(١) سورة الشعراء، آية ٩٠، أزلفت: أى قربت وأدنيت، يقال له عندى زلفى أى: قربى.
(٢) تفسر فتح الرحمن للشيخ زكريا الأنصارى ص ٤١٤.
(٣) سورة الأحقاف، آية ٢٠.
(٤) سورة الكهف آية ١٠٠.

يقدم إليها ويعرض عليها؛ لأن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور وإدراك واختيار حتى يقبل أو يرفض، لكنه جئ بالقلب فى الآية لتضمنه اعتباراً لطيفاً ونكتة بلاغية، وهى الإشارة إلى أنهم مقهورون ومجبورون فكأنهم لا اختيار لهم، والنار متصرفة فيهم، وهم كالمتاع الذى يتصرف فيه من يعرض عليه[١].

وقوله تعالى (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا)[٢]. الآية

الأصل: كم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها.

وجئ بالقلب فى الآية الكريمة ليؤدى معنى بلاغياً، وهو المبالغة فى شدة سورة البأس، أى أن هذه القرية هلكت بمجرد توجه البأس إليها ثم جاءها فما أبقى منها شيئاً.

وأقول هل حمل هذه الآيات على ظاهرها وتفسيرها على القلب كما ذهب إليه المفسرون، أو اللجوء بها إلى التأويل بما فيه من تكلف؟

ولماذا لا يقبل من هذا الأسلوب ما هو صحيح مستقيم يؤدى غرضاً بلاغياً، ويرد منه ما يؤدى إلى اللبس وغموض المعنى؟

وأرى التوسط فى قبول هذا الأسلوب البلاغى فلا نقبله على الإطلاق، ولا نرفضه على الإطلاق، وإنما يقبل منه ما يؤدى معنى بلاغياً، ويرفض منه ما يؤدى إلى العمية والغموض فى المعنى.

واستند فى قبول البليغ منه على وروده فى القرآن الكريم وهو معيار السلامة وميزان الاعتدال.

وعلى رفض المرفوض حيث انه يؤدى إلى ضياع المعنى.

---

(١) انظر شرح عقود الجمان للسيوطى ص ٣٠.

(٢) سورة الأعراف آية ٤.

﴿٧٧٨﴾

المراجع

١- أسرار البلاغة - للإمام عبد القاهر الجرجانى. تحقيق هـ ريتر الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

٢- الإشارات والتنبيهات - محمد بن على الجرجانى - تحقيق د/ عبد القادر حسين ط. دار نهضة مصر.

٣- الإيضاح - الخطيب القزوينى - تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى - ط. بيروت.

٤- البرهان فى علوم القرآن - للزركشى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. دار التراث.

٥- بغية الإيضاح - للشيخ عبد المتعال الصعيدى - ط. المطبعة النموذجية.

٦- البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى - الطبعة الأول ١٩٨٦م - مطبعة الأمانة.

٧- تأويل مشكل القرآن - لابن قتيبة - ط. بيروت.

٨- تفسير الطبرى - الإمام الطبرى - ط. بولاق. دار المعارف.

٩- تفسير فتح الرحمن - للشيخ زكريا الأنصارى. ط. الحلبى.

١٠- تنزيه القرآن عن المطاعن - القاضى عبد الجبار الهمذانى - ط. دار النهضة.

١١- حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص. الشيخ الدسوقى - ط. دار

السرور بيروت.

١٢- حاشية اللب المصون - للشيخ أحمد الدمنهورى - ط. الحلبى.

١٣- الخصائص - لابن جنى - ط. دار الكتب.

١٤- دراسات بلاغية فى القرآن والحديث د/ عبد الفتاح لاشين ط الأولى.

١٥- سر الفصاحة - لابن سنان الخفاجى - ط. دار الكتب العلمية ط أولى - بيروت.

١٦- سنن أبى داود - ط. دار الحديث القاهرة.

١٧- شرح عقود الجمان - للسيوطى - ط. عيسى الحلبى.

١٨- الصاحبى - لأبى الحسين أحمد بن فارس - تحقيق السيد أحمد صقر - ط. الحلبى.

١٩- فن البلاغة - د/ عبد القادر حسين - الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

٢٠- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد - ط. مؤسسة المعارف بيروت.

٢١- الكتاب - سيبويه - ط. الأميرية.

٢٢- الكشاف - الزمخشرى. ط الاستقامة.

٢٣- لسان العرب - لابن منظور - ط. دار صادر بيروت.

٢٤- متشابه القرآن - القاضى عبد الجبار الهمذانى.

٢٥- المثل السائر - لابن الأثير. ط. نهضة مصر.

٢٦- مجاز القرآن - لأبى عبيدة - علق عليه/ محمد فؤاد سزكين ط. ١٩٥٤م.

٢٧- المطول للإمام سعد الدين التفتازانى. ط ١٣٣٠هـ.

٢٨- المحتسب - لابن جنى ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٢٩- معانى القرآن. الفراء - تحقيق محمد على النجار - ط. دار السرور بيروت.

٣٠- معترك الأقران - السيوطى - ضبطه أحمد شمس الدين - ط. دار الكتب العلمية.

٣١- مفتاح العلوم للسكاكى - ط. دار الكتب العلمية بيروت.

٣٢- من بلاغة النظم العربى. د/ عبد العزيز عرفة - ط. ثانية.

٣٣- الموازنة للآمدى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - ط. بيروت لبنان.

٣٤- نشأة الفنون البلاغية - د/ حمزة الدمرداش زغلول.

٣٥- نقد الشعر - قدامة بن جعفر - تحقيق د/ محمد عبد المنعم جفاجى - الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٣٦- نهاية الأرب فى فنون العرب - النويرى.

٣٧- الوساطة بين المتنبى وخصومة - القاضى الجرجانى - ط. عيسى الحلبى.